Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672

https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i4

أدوار ابي سفيان النفعية في العهد النبوي الشريف (دراسة تحليلية)

م. حارث جبار عبد
جامعة ميسان / كلية التربية/قسم التاريخ، alyassriy_harth@uomisan.edu.iq

الملخص

يتطرق هذا البحث الى دراسة دوافع التقلبات التي ظهرت في مواقف أبو سفيان تجاه المسلمين في العهد النبوي الشريف، ومن أي نوع كان هذه الدوافع؟ فمن جهة كان أبو سفيان يشكل راس الشرك والنفاق بين زعامات قريش، والأكثر إصرارا وتحمسا للقضاء على الدين الجديد، فكان العقل المدبر لأغلب العمليات الحربية التي كانت تستهدف اجتثاث دولة الإسلام في يثرب من الاساس. ومن جهة أخرى تحول أبو سفيان الى أسلوب الموادعة والخنوع في تعاملاته مع المسلمين بعد الحادثة التي أدت الى انهيار اتفاق الحديبية المبرم بين الطرفين سنة (6 هـ) ، مما أتاح للمسلمين الفرصة للاستعداد لفتح مكة المكرمة بأريحية مطلقة سنة (7 هـ)، وحال الفتح ظهر أبو سفيان - وهو سيد قريش - بمظهر القائد المنهزم والراغب في استحصال رضا الطرف الاخر، وهذا التحول الكبير في سياسة أبو سفيان تجاه المسلمين جوبه بسيل من الانتقادات اللاذعة من قبل بعض زعامات قريش، متهمة إياه بالتخاذل والضعف تارة وبالتواطؤ والخيانة تارة اخرى. ولمعرفة الأسباب الكامنة وراء هذا التباين والواضح في مواقف أبو سفيان تجاه المسلمين، لا بد من الكشف على حقيقة شخصية أبو سفيان والتحري على أهدافه في كلا المرحلتين – المواجهة والاستسلام – فكلاهما عنده سيان لا فرق بينهما، فالأهم لديه هو المحافظة على منافعة الشخصية بالدرجة الأولى.

الكلمات المفتاحية: الدين الإسلامي، أبو سفيان، مشركي قريش، اسلوب المراوغة، المنفعة الشخصية.

Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672

https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i4

Abu Sufyan's utilitarian roles during the Prophet's era: Analytical study

Inst.Harith Jabbar Abd
Maysan University / College of Education/ History alyassriy_harth@uomisan.edu.iq

Abstract

This study examines the motives behind the fluctuations that emerged in the stances of Abu Sufyan al-Makh during the noble prophetic era. On the one hand, Abu Sufyan was the head of polytheism and hypocrisy among the leaders of Quraysh, but he remained steadfast in his adherence to the new religion and was the mastermind behind most of the military operations that completely eradicated the Islamic state in Yathrib from its foundations. On the other hand, Abu Sufyan turned to a method of conciliation and submission in his dealings with the Muslims after the incident that led to the collapse of the Hudaybiyyah Agreement (6 AH) between the two parties, which gave the Muslims the opportunity to conquer Mecca with absolute ease (7 AH). During the conquest, Abu Sufyan, the leader of the Quraysh, appeared as a defeated leader who was eager to gain the favor of the other side. This major shift in Abu Sufyan's policy toward the Muslims was met with a torrent of harsh criticism from some of the Quraysh leaders. To understand the underlying reasons behind this apparent discrepancy in Abu Sufyan's attitudes toward the Muslims, it is necessary to uncover the true nature of Abu Sufyan's personality and investigate his objectives in both stages - confrontation and surrender - as both were the same to him, and what was most important to him was preserving his personal interests first and foremost.

Keywords: Islamic religion, Abu Sufyan, polytheists of Quraysh, Evasive style, Personal benefit.

المقدمة

دراسة تاريخ صدر الإسلام وخصوصا مرحلة المواجهة بين مشركي قريش ورسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) تعد واحدة من الدراسات المهمة بل الأساسية بين المراحل التاريخية للمسلمين، فهي مرحلة التأسيس لبناء دولة الإسلام في يثرب ثم توسعت لتشمل مناطق شاسعة تحوي شعوبا متنوعة.

ومن بين أبرز زعامات مشركي قريش يقف صخر بن حرب بن امية – أبو سفيان – شاخصا يُعتد به في الصف الأول لخط الممانعة القرشية بوجه انتشار مبادئ الدين الجديد، فقد سخر أبو سفيان جميع إمكاناته في القضاء على الإسلام، من خلال كسب رؤوسا قبائل جزيرة العرب وزعامات اليهود في يثرب، لتجيش الجيوش وحشدها للقيام بعمليات قتالية متكررة ضد المسلمين، لكن بائت جميع محاولاته بالفشل.

ثم انتقل الى استعمال سياسة مغاير تماما عما كان يتبعها في معاملاته مع دولة الإسلام الاخذة بالنمو والتوسع، حيث اتاحت الفرصة للمسلمين ان ينجحوا في اقامت تحالفات قوية مع العديد من رؤساء قبائل جزيرة العرب، فضعف نفذ مشركي قريش بين تلك القبائل، مما جعل موقفهم حرجا امام تقدم المسلمين لفتح مكة المكرمة (7 هـ).

عندها ادرك أبو سفيان مالم تدركه بقية الزعامات من قريش، فهو يعلم بعدم استطاعتهم مواصلة المواجهة مع دولة الإسلام في يثرب الاخذة بالتمدد والاتساع، لذا قرر الاستسلام من دون الرجوع للتشاور مع زعامات قريش، واتبع سياسة الخنوع والمدارات في تصرفاته وحديثه مع المسلمين عله يحصل على ما يضمن له ولبنيه مراكزا متقدمة في مفاصل دولة الإسلام مستقبلا.

توزعت هذه الدراسة على شكل فقرات استعرضت ابرز الاحداث التاريخي ذات العلاقة بالمحاور أعلاه، واعتمدت المنهجية التاريخية التحليلية في سرد الروايات التاريخية وبيان مضامينها، وما كانت تشير اليه في نطاق هذه الدراسة.

وقد اعتمد الباحث في رفد هذه الدراسة على مصادر متنوعة، منها كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (ت230هـ) وكتاب تاريخ خليفة بن خياط لخليفة بن خياط (ت240هـ) وكتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة (ت276هـ) وكتاب تاريخ الامم والملوك للطبري (ت310هـ) وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (626هـ) وكتاب الاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن عبد البر النمري (463هـ) وغيرهن المصادر التي اغنت الدراسة بالمادة التاريخية.

البدايات:

الامويون يقدمهم أبو سفيان بلا شك هم طلاب زعامة وتسلط حتى من قبل ظهور دولة الاسلام حديثة العهد، فهم اصحاب نفوذ واسع بين قبائل جزيرة العرب عامة وبطون قريش خاصة، جعلهم في حالة تحدي ومنافسة مستمرة مع نظرائهم من قريش واخوتهم ابناء عبد مناف، (ابن سعد، 1983) فجدهم الأعلى امية بن عبد شمس دخل في سجال المنافسة على الزعامة مع عمه هاشم بن عبد مناف، لان الاخير حقق تقدماً ملحوظاً بنشاطه الاصلاحي والخدمي مع أبناء عمومته من قريش. (اليعقوبي، 1999)

ففي عام المجاعة حيث ضربت سكان مكة بما فيهم حجاج بيت الله الحرام، حيث عانى الجميع شغف العيش لقلة المؤن الغذائية فظلا عن قلة الأموال وعسر الحل، الى درجة اوشك الجوع ان يقضي عليهم وخصوصا الطبقات الفقيرة من أبناء قبائل مكة، امر هاشم الرجال بنحر الابل وطهي الطعام وتهشيم كميات كبيرة من الخبز في جفان ثم تقديم الثريد لأهالي مكة وحجاجها، (ابن هشام، 1986) وقد خلد احد الشعراء هذه الخطوة المباركة لهاشم بقوله: (البلاذري، 1996)

تـحـمـل هـاشـــم مـا ضـــاق عـنـا واعـيـا ان يـقـوم بـه أبـن بـيـض

فـأوســـع أهـل مـكـة مـن هشـــم وشـــاب الـخـبـز بـالـلـحـم الـغـريـض

فظلاً عن نجاحه الكبير على الصعيد التجاري، (الطبري، 1998) فعلى شأنه وذاع صيته بين الارجاء ودانت له قبائل مكة بالزعامة والسيادة، (المسعودي، 1979) عندها بدأت وتيرت المنافسة تتصاعد بين هاشم وامية حسداً من الأخير، خصوصاً بعد ان ترك امية دياره في مكة الى الشام عشر سنوات، (الطبري، 1998) على اثر خسارته شروط الرهان مع عمه هاشم. (ابن سعد، 1983)

وكما يقال: ربا ضارة نافعة؛ فالشام التي خرجوا اليها مبعدين، كانت لهم بوابة لنمو نشاطهم الاقتصادي، ونواة دولتهم في قادم الأيام. نجح امية بتشكيل شبكة علاقات اجتماعية واقتصادية مع رؤوس القبائل العربية القاطنة في مناطق الشام، وبدء يهيمن على حركة القوافل التجارية المارة عبر المناطق الواقعة بين الشام مكة، فتعاظم شأنه وكثرة ثروته وازداد نسله. (المسعودي، 1979)

بعد ذلك اخذ امية وابناءه يترقبون أوضـــاع مكة ويتابعون كل صـــغيرة وكبيرة من تطوراتها بتمعن، وكان جل تركيزهم حول نشاط غريمهم هاشم وابناءه، الى ان أتت الاخبار بما يهوى امية ويتمنى، فعندما علم برحيل عمه هاشم سيد قريش عن الدنيا، (القلقشندي، 1959) ايقن ان أبواب المنافسة فتحت له ولبنه من بعده مجددا على الزعامة في مكة المكرمة، عندها شدوا الرحيل وجدوا في المسير سراعا في العودة الى ديارهم، وليكونوا شريكاً منافساً قوياً لسيادة قريش مع لأبناء هاشم بن عبد مناف، خصوصاً بعد انصراف ابناء هاشم نحو الامور الخدمية فيها من قبيل سقاية واطعام حجاج البيت والعمل على توفير اجواء الراحة والاستقرار لهم، اكثر من اهتمامهم بالتجارة والمضاربات في الاسواق لجمع الاموال بشتى الوسائل. (المسعودي، 1979)

أبو سفيان:

اسمه: صخر ابن حرب ابن امية ابن عبد شمس ابن عبد مناف، أمه: صفية أبنت حزن ابن بجير ابن هزم ، وأبو سفيان اسم الشهرة، (البلاذري، 1996) وكان يكنى بابي حنظلة ايضا، الواقدي، المغازي، ج 2، ص 817. ابن الأثير، أسد الغابة، ج 3، ص 12. لم تحدد سنة ولادته بالضبط فالمشهور انها كانت قبل حادثة الفيل بعشرين عاما، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 13. يرجع أبو سفيان الى فرع العنابسة من أبناء جدهم الأعلى امية بن عبد شمس، (ابن حزم، 1962) اذا ان أبناء امية كانوا ينقسموا الى فرعين الى رئيسين هما الاعياص والعنابسة، فاما الاعياص خرج منهم عثمان بن عفان وبني مروان بن الحكم الذين حكموا الدولة الاموية بعد السفيانيين، (الطبري، 1998) واما فرع العنابسة لقبوا بهذا الاسم تشبها بالأسود، (البلاذري، 1996) اذ كانت لهم جولات وصولات في ميادين الاقتتال مشهودة، وكان أبوه حرب الأبرز بين اخوته والاقرب الى شخصية ابيه والأكثر اقتداءً بتصرفاته وتطلعاته، (صدقي، 1994) حتى انه تسيد عليهم بعد موت ابيه، بل الاكثر من ذلك حيث انيطت به قيادة قريش في حرب الفجار، فكانت الزعامة العسكرية فيه ثم انتقلت الى ابنه صخر بعد موته. (علي، 1980)

كانت لابي سفيان منزلة مرموقة بين زعامات قريش، فعلى الصعيد الاقتصادي كان الأكثر نشاطا في المعاملات التجارية، فقوافله لا تتوقف عن مواصلة المسير مُحملة بالبضائع يجوب الطرق التجارية جنوبا وشمالا، (البلاذري، 1996) واما على الصعيد الاجتماعي فكان في صدارة القوم شأناً ونفوذا، فقد قيل عنه: (...كان عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة، وأبو جهل، وأبو سفيان لا يسقط لهم رأي في الجاهلية، فلما جاء الإسلام لم يكن لهم رأي، وظهر عليهم السقوط والضعف والهلاك في الرأي)، (ابن عبد البر النميري، 2002، صفحة ج5،ص189) اما على الصعيد العسكري فكانت العقاب وهي راية قريش في بيت أبي سفيان توارثها عن ابيه حرب، ينشرها في اوقات الحروب والغزوات. (شاكر، 1991)

شكل أبو سفيان راس الرحم في قوة مشركي قريش التي واجهت بالرفض الشديد دعوة الرسول الاكرم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) للدخول في الدين الجديد، (سالم، 1974) فكان الأكثر تشددا في التضيق على حركة المسلمين وعدم السماح لهم بنشر مبادئ الإسلام بين قبائل قريش وأبناء القبائل في جزيرة العرب ومواليهم، عندما كانوا داخل مكة المكرمة او في مرحلة المهجر فيما بعد، فقد حث كبار قريش وفي طليعتهم أبو سفيان عمرو بن العاص السهمي على تشويه سمعة المسلمين المهاجرين الى بلاد الحبشة، حيث كانت تربطه علاقة صداقة بملكها النجاشي، لكن محاولة قريش باءت بالفشل حينما اثبت متحدث المهاجرين

جعفر بن ابي طالب (سـلام الله عليهما) بطلان مقولة عمرو بن العاص وكشـف افتراءاته على المسـلمين في بلاط النجاشـي. (خليفات، 1998)

ولما أصـبحت يثرب مركزا للدعوة الإسـلامية وتنورت بنور النبوة المباركة اصـر أبو سـفيان وبقية زعماء مشـركي قريش ان يطفئوا نور التوحيد فيها، فعمدوا الى محاربة المسلمين اقتصـاديا عبر مصـادرة ممتلكات المهاجرين، (ماجد، 1957) ثم مرحلة الحروب الثلاث – بدر (2 هـ) واحد (3 هـ) والخندق (5 هـ) - وما تخللتها من مواجهات قتالية صغيرة اخرى، (اليعقوبي، 1999) فشـل مشـركي قريش وزعيمهم أبو سـفيان في هذه العمليات العسـكرية عن تحقيق مبتغاهم، في حين جعلت من شـوكة الإسلام تتجذر اكثر فأكثر بين أبناء القبائل المنتشرة في جزيرة العرب، وبالمقابل اخذت هذه الحروب الثلاث مأخذها في قوة أبو سـفيان وقريش القتالية والاقتصـادية، فبان عليهم الوهن والضـعف عن مواصـلة التحديات الجديدة التي افرزتها تلك الحروب، وخير مثال على ذلك ان أبو سـفيان وقريش اعترفوا جهارا بدولة الإسـلام في يثرب عندما جلسـوا مرغمين للتفاوض مع النبي الاكرم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) في الحديبة سنة (6 هـ). (ابن هشام، 1986)

لذا عدت المعاهدة التي ابرمها المسلمون مع مشركي قريش في الحديبية سنة (6 هـ) بمثابة فتحا عظيما تحقق للدولة الإسلام الفتية، (الواقدي، 1966 م) وهذا يتجسد في قوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) وتبرز أهمية هذه المعاهدة في أمور أساسية تعمل على تغيير موازين القوى بين المسلين ومشركي قريش، بحيث استغل المسلمون هذه العشرة سنوات في تعزيز علاقاتهم الاجتماعية مع رؤوس القبائل حتى انتشـر الإسـلام بين أبنائها انتشـارا ملحوظا، فظلا عن ارتباط هذه القبائل بمعاهدات دفاع مشـترك مع دولة الإسـلام الفتية، (المباركوري، 1990) في حين ان مشـركي قريش اخذ نجم نفذهم بين جزيرة العرب بالأفول شيءً فشيءً، حتى خسرت مركزها الريادي بينهم، نتيجة الخسائر المادية والبشرية التي تكبدوها على اثر الانتكاسات العسكرية في حروبهم الثلاث مع المسلمين. (طقوش، 2016)

وعلى الرغم من ان أسلوب الفضـاضـة الذي تحاور به ممثل قريش سـهل بن عمرو المخزومي مع رسول الله محمد (صـلى الله عليه واله وسلم) حينما ارادا كتابة بنود الهدنة، فقد جاء: (اكتب باسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا نعرف هذا ولكن اكتب: باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: اكتب هذا ما صـالح عليه محمّد رسول اللَّه سـهيل بن عمرو، فقال سـهيل: لو نعلم أنك رسول اللَّه لم نقاتلك، ولكن اكتب اسـمك واسـم أبيك، فقال لعلي: امحُ رسـول اللَّه. فقال: لا أمحوك أبدا. فأخذه رسـول اللَّه صـلى الله عليه وآله وسلم، فكتب موضع رسول اللَّه: محمد بن عبد اللَّه، وقال لعلي: لتبلين بمثلها) (ابن الاثير، 1982، صفحة ج6،ص167) كما ان بعض بنود المعاهدة كانت قاسية تجاه المسلمين، من قبيل: (...، وأنه من أتى محمدا منهم بغير إذن وليه رده محمد إليه، وأنه من أتى قريشا من أصحاب محمد لم يردوه، ...). (المقريزي، ١٤٢٠ ه، صفحة ص154)

ومع ما تقدم من ذكره من بعض بنود هذه المعاهد التي تبدو للقارئ انها كانت تثقل كاهل المسـلمين وتعيق في حركة انتشـار دعوتهم وتحد من ازدياد نفوذهم بين قبائل جزيرة العرب، الا ان النبي الاكرم محمد (صـلى الله عليه وله وسـلم) كان على وعد الفتح من قبل الله تبارك وتعالى، فمن بين حدة كلمات هذه البنود كانت هناك مفاتيح أبواب مكة المكرمة تتلألأ امام ناضـريه المباركة.

وهذا ما حدث بالفعل فأن قريش لم تستطع ان تسيطر على غطرسة أبنائها المتهورين، وتمنعهم من الانزلاق في المشاحنات التي كانت تحدث بين قبائل الجزيرة العربية المنقسـمين في تحالفاتهم بين مشـركي قريش ودولة الاسـلام، فقد قتلوا رجلا من قبيلة خزاعة في غارةٍ قاموا بها خلسـة عليهم، (خليفةبن خياط، 1967) وخزاعة كانت ممن داخل في تحالفات مع دولة الإسـلام، عندها أُسقط ما كان بأيدي قريش وانتشر الرعب بين رؤوسهم في طليعتهم ابي سفيان، الذي مال هذه المرة الى أسلوب المراوغة تحاشـيا من خطر المسلمين، فقد وصـلتهم الاخبار ان النبي الاكرم محمد (صـلى الله عليه وله وسـلم) اعلن حالة النفير العام في المدينة المنورة ودعا جميع القبائل المتحالف معها للالتحاق بتجمع مسـلمي المدينة لمهاجمة قريش في عقر دارهم، فقال أبو سفيان: (... والله ليغزونا محمد إن صدقني ظنّي، وهو صادق، ولابدّ من أن آتي محمداً فأكلمه أن يزيد في الهدنة و يجدّد العهد). (ابن هشام، 1986، صفحة ج4،ص54)

فتح مكة المكرمة سنة (8هـ):

بعد الفتح كسرت شوكة قريش وفي طليعتهم ابي سفيان شيخ بني امية راس الشرك ومركز القيادة بين قريش، (خليفات، 1998) الذي افزعته مشـاهد العزة والغالبة للإسـلام وكثرة جنده، حيث بلغ عدد المسـلمين عشـرة الاف مقاتل مدججين بالسـلاح والحديد

بين راكب وراجل، (اليعقوبي، 1999) وبينهم قائدهم رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) تحفه رجال الكتيبة الخضراء، (ابن هشام، 1986) فبالوقت الذي عجز فيه أبو سفيان عن تعبئة المقاتلة بالقدر الذي يتح له الوقوق امام هذا العدد الكبير الزاحف نحو مكة المكرمة.

وقد احسن المسلمون التعبئة اللازمة للحرب واصطفافهم على شكل كتائب وكراديس اطلت من على جبل ابي قبيس (الازرقي، 1969) على محيط مكة المكرمة بعد ان احكموا قبضتهم على مداخلها، (اليعقوبي، 1999) فلم يتركوا لابي سفيان زعيم قريش خيار سوى المسير نحو خيمة رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) لعله ينجح في اقناع المسلمين بفك الخناق عنهم والعدول عن دخول مكة المكرمة بهذه الصورة، فيحقن بذلك الدماء وينقذ ما بقي من شرف قريش ويحفظ لها كرامتها مما قد تلاقيه من هزيمة نكرى مؤكدة على يد جند الإسلام. (حسن، 1984)

الانه لم يفلح في مسعاه فبادر لصاحبه العباس بن عبد المطلب (رضوان الله عليه) الذي امّن له طريق اللقاء برسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) خشية ان يتعرض له أحدا من المسلمين بالأذى، فقال لصاحبه مستغربا مما رأت عيناه من عظيم تعبئة جند الإسلام وكثرة اعدادهم وتنوع أسلحتهم : (... لقد اصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما ... فرد عله العباس قائلا: يا ابا سفيان انها النبوة ... قال : فنعم اذن)، (ابن هشام، 1986، صفحة ج4،ص46) وكأنما في كلمات أبي سفيان لون من الخنوع والرغبة الى عدم تأجيج الأوضاع الى اكثر مما هي عليه، كما أراد ان يشعر الطرف الاخر انه قادم لكسب رضاه والنزول عن مبتغاه، ولكن من دون ان يقدم المزيد من التنازلات له، (شعبان، 1987) فهو أبو سفيان سيد قريش وصاحب القول الفصل بينهم، فظلا عن انه كان العقل المدبر لكل أساليب المواجهة التي ابدتها قريش ضد انتشار الاسلام، (الخضري، 1976) ويمكن ملاحظة ذلك عندما واجهه النبي الاكرم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) بمظهر المتشدد الصارم كي ينتزع عنه لباس الغطرسة والتعالي، فقال له: (... ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟) (ابن حبان، 1393ه) فأجابه أبو سفيان بطريقة في منتهى البراعة في اتقان فن المدارات، حيث قال: (بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا). (الطبراني، 1983، صفحة ج5،ص167)

ومع ان أبو سفيان نطق بشهادة التوحيد فقال: (... أشهد أن لا إله إلا الله، ...) (الطبري، 1998، صفحة ج5،ص167) ولكنه صعب عليه ان يقر بنبوة النبي الاكرم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) فأردفه النبي بذات الاسلوب المتشدد: (ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟) (اليعقوبي، 1999، صفحة ج2،ص176) فعاود أبو سفيان الى اظهار المسايسة قائلا: (بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن) (الطبري، 1998، صفحة ج5،ص167) وبعد تدخل العباس بن عبد المطلب (رضوان الله عليه) مهددا لابي سفيان بقط رأسه اذا بقي يتهرب بأساليب المراوغة والمماطلة، عندها لم يجد ابو سفيان مفراً غير قبول الامر الواقع والاقرار بانتصار الإسلام واعلن استسلامه وانهاء حالة المقاومة القرشية امام المد الاسلامي الاخذ بالانتشار والتوسع بين افراد قبائل جزيرة العرب. (اليعقوبي، 1999)

ردود الأفعال:

ترك موقف ابو سفيان الضعيف هذا اثراً بالغاً في نفوس زعامات قريش الأخرى كسهيل بن عمرو، (ابن خلكان، 1994) اذ انكروا عليه خنوعه امام صلابة موقف المسلمين وتساهله بالحديث مع رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) دون التمسك بعزة نفس او محاولته التظاهر بالقوة والمنعة التي طالما عرفت عن شخصية رجالات قريش عامتا و زعامات بني امية خاصتاً في هكذا ظروف صعبة ومصيرية مرت عليهم سابقا، فقبول أبو سفيان بالاستسلام من غير احراز اي مكاسب يضمنها لأهل مكة المكرمة مَثل ذلك انعطافة شديدة كان لها الاثر البالغ في طبيعة متغير اواصر معادلة العلاقات ضمن خط جبهة المواجهة القرشية والاموية ضد الإسلام في مرحلة ما بعد فتح مكة المكرمة سنة (8 هـ). (الصلابي، 1995)

فضلا عن ان حالة عدم الرضا تجاه تصرفات ابي سفيان مع جند الاسلام لم تتوقف عند دائرة رجالات قريش فحسب، بل شملت حتى بعض اهل بيته الخاصة الرافضة لحالة المهادنة والتسامح مع رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) او حتى القبول بفكرة التساهل بين الطرفين، نتيجة لما تعرضت له افراد هذه الاسرة من نكبات وهزائم متلاحقة على يد المسلمين طيلة سنوات المواجهة القرشية والاموية الرافضة لانتشار افكار الدين الجديد ومبادئه السامية بين قبائل جزيرة العرب، (عمامو، 1996) ويتجلى ذلك في موقف زوج ابي سفيان هند بنت عتبة (الذهبي، 1999؛ ابن الاثير، اسد الغابة في معرفة الصحابة، 1377ه) الغاضب والمتشدد تجاه المسلمين الذين احرقوا قلبها بقتلهم احبتها ابيها واخيها وعمها، (ابن قتيبة، 1990) فحينما التقت هند

زوجها وعلمت بما احدثه من امر جلل ايقظ نيران احقادها , وانتقد خنوعه للمسـلمين وانهالت عليه بالقول الفاحش وانكرت فعله ووبخته ولم تتوقف عنه بل حرضت اهل مكة على قتل زوجها المتخاذل الجبان. (المسعودي، 1979)

ان خلفية احداث فتح مكة الاخيرة انعكسـت سـلباً على طبيعة العلاقة القرشـية الاموية خلال مرحلة التغير تحديداً ، التي ترتب عليها ظهور وضـــع جديد في ميزان القوى داخل بطون قريش نفســـها، تمخض عنه عزل ابي ســـفيان عن زعامة قريش. (الكوراني، 1426ه) فقد قرر كبار رجالات قريش : ان الموقف المتخاذل الذي ضهر به ابو سفيان امام المسلمين قد اضر كثيراً بسـمعتهم وافقدهم مكانتهم الكبيرة بين قبائل العرب في طليعتهم عمرو بن سـهيل ، (الملغوث، 2011) ولم تتوقف قريش عن حد عزل اي ســـفيان عن زعامة قريش بل ان نشـــاط كبار قريش في مكة على تقليل دور بني امية قاطبتاً والعمل على التقليل من مكانتهم ومنزلتهم بين بطون قريش الى درجةٍ اصبح فيها دور سهيل بن عمرو المخزومي اوسع شأناً من عتاب بن اسيد الأموي عامل رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) في مكة من فتحول الاخير إلى واليا شكلي. (المصطفى، 1419ه؛ ابن الاثير، اسد الغابة في معرفة الصحابة، 1377ه)

ومما عضـد راي زعامات قريش تجاه موقف ابي سـفيان وزاد في شـكوكهم نحوه قول رسـول الله محمد (صـلى الله عليه واله وسـلم) : لأهل مكة (... من دخل دار ابي سـفيان فهو امن ...)، (الطبري، 1998) حينما دخل المسـلمون مكة المكرمة واراد الرسـول (صـلى الله عليه واله وسـلم) تهدئة الاوضـاع حقنا لدماء الاهالي فيها جراء حدوث مناوشـات قليلة متفرقة في بعض انحائها قام بها نفر من المعترضين على فتح مكة بهذه الكيفية دونما اظهار حالة الممانعة ولو بشيء قليل. (ابن سعد، 1983) لذا ذهب قسم من رجالات قريش الى الاعتقاد بأن وصـف رسـول الله محمد (صـلى الله عليه واله وسلم) لدار ابي سفيان بن حرب بالأمنة لمن يلجئ اليها من مشركي مكة هو بمثابة تكريماً لموقف ابي سفيان المتساهل او ربما لصلة رحم به كومنهما ينحدران من نسل عبد مناف الجد الاعلى لأبناء هاشم وعبد شمس على حد سواء. (ابن قتيبة، 1990)

وهناك من يرى ان للعباس بن عبد المطلب (رضـوان الله عليهما) دورا كبيرا في منح ابي سـفيان منزلة لعلها تكون مرموقة في نظر زعامات قريش ممن واجه موقف أبو سفيان بالرفض والمعارضـة، فيذكر ان العباس (رضوان الله عليه) بعد ان احسن بما تعرض له صـــديقه المقرب أبو ســـفيان من موقف في غاية الحراجة، وكيف تعامل الأخير مع هذا الموقف بأســـلوب المدارات والنزول على رغبات المسلمين دون اباء أي مظهر من مظاهر المقاومة، وهذا امرا صعبا اضر بمنزلة أبو سفيان بين زعامات قريش بل حتى في داخل اسرته الخاصـة، لذا أراد العباس (رضـوان الله عليه) ان يقوم بعمل يكون فيه تعويضـا لابي سفيان، او ربما تكريما لموقف الاستسلام ومنع وقوع السيف بين الجانبين، فقال: (... يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا...). (المباركوري، 1990)

ولكن ابو سفيان لم يعر لقرار معارضـه اهتماماً ، فقد كان اوسعهم افقاً وابصرهم نظراً فهو يرى المستقبل القادم يتحقق بركوب موجة التغيير الكبير الذي سيحدث بعد فتح مكة المكرمة (8 هـ) على الصعيد السياسي في جزيرة العرب ، فحث بني امية للعمل بجد واجتهاد على امل الحصـول على مراكز ادارية متقدمة بين قيادات الخط الاول في دولة الاسـلام الجديدة لتكون عوضـاً لهم عما كانوا عليه ايام الجاهلية (صـدقي، 1994) وهذا ما سـنلاحظه يتحقق فعلاً على ارض الواقع ولو بصـورة تدريجية بدأً بزمن حكومة الاول ثم الثاني وصـــولاً الى شـكله الاوســع والاعم خلال اول حكومة اموية تمثلت بشـــخص عثمان بن عفان الاموي والممهدة لقيام الدولة الاموية على يد معاوية بن ابي سفيان سنة (41-132هـ). (ابن قتيبة، 1990)

اهداف أبو سفيان من الاستسلام:

لعل في موقف ابي سفيان المثير للجدل توجيه يصب في مجرى المصلحة المشتركة العليا بين قريش وبنو امية، (العش، 1992) فأبو سفيان لم يتخذ قراره المصـيري بالاستسلام والقائه سلاح المقاومة مع المسلمين من باب حقن دماء سكان مكة المكرمة او لحفظ ماء وجه رجالات بطون قريش من بني امية وغيرها من القبائل المتحالفة معهم، فعلى الرغم من اهمية هذه الامور والحسـابات الاسـاسـية في نظر زعماء القوم ورمزية قداسـتها وفقاً للأعراف القبيلة السـائدة بينهم، فكما معلوم ان الحرص على عزة وكرامة القبيلة ومجد ماضـيها وتأمين مستقبلها يأتي ضـمن أولويات شـيخها، ثم بعدها تأتي مسألة الارواح والدماء وغيرها من الامور النفيسـة الاخرى التي تسـعى الزعامات القبلية للتقليل من وقوع الخسـائر فيها خلال المواجهات الحربية الواقعة بين القبائل في جزيرة العرب. (اليعقوبي، 1999؛ علي، 1980)

الا ان ابا سفيان خالف هذه القواعد والاعراف القبيلة السائدة، ولعله كان مكرها في تركه واجبات الزعامة جانباً ولو مقتاً ، ليقوم بتقديم مشهداً اخر فرضته الاحداث الأخيرة وما رافقها من تغير واضح في موازين القوى أتاح لدولة الإسلام التفوق على جبهة الممانعة لمشركي قريش خصوصا على الصعيد العسكري، فقد عبر أبو سفيان من خلاله عن وجهة نظر اخرى مغايرة تماماً عما كان متعارف عليه بين زعامات قبائل جزيرة العرب، فالمسألة بنظره اوجبت عليه اتباع هذا الأسلوب المناسب وفقا لتقديراته. وهنا لا بد من استعراض اهم الدوافع الكامنة وراء تصرف أبو سفيان بها الاتجاه وعلى هذا النحو.

حقيقة الأمور:

ابو سفيان الرجل الحذق ينظر الى واقع الحال بواقعية اكثر قياسا بنظرة اقرانه من زعامات قريش الاخرين، فمسألة الاستمرار بمواجهة التيار الاسلامي الزحف بتصميم وارادة حديدية تمكنهم من دخول مكة بيسر، (الواقدي، 1966 م) هي مسألة خاسرة باعتقاده ولا جدوى من البقاء على نفس المنوال والاساليب السابقة لهذه الاحداث، فقد طرئ تغير كبير على موازين القوى بعد هدنة الحديبية عام (6هـ) (ابن هشام، 1986) نتج عنها رجحان كفة المسلمين على حساب مشركي قريش، وكما يقال: النتائج محكومة بمقدماتها، فسكان مكة المكرمة لا طاقة لهم اليوم بمواجهة جند الاسلام الذين ضمنوا النصر سلفاً، وفقاً للمعايير الحربية المتعارف عليها. (المباركوري، 1990) وأبو سفيان كانت له مأرب خاصة يسعى لتحقيقها عبر سلوكه هذا الأسلوب المراوغ والمهادن، فهو لم يكن ليسلم هكذا بسهولة ويذعن للمسلمين، او انه فعلا دخل في الدين الإسلامي عن اعتقد راسخ وقناعة مطلقة، بل انه تظاهر بنطق الشهادتين اما رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) مرغما كي يبدئ بمشوار تحقيق أهدافه المستقبلية. (طقوش، 2016)

فمواقفه الدالة على بطلان ادعاءه الإسلام وضح امام جمهور المسلمين الأوائل، فقد تجسدت حقيقة فساد عقيدته في مواطن كثيرة في حياة رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) المباركة، وسيأتي على ذكرها في فقرات هذا البحث لاحقا.

وأيضا كانت ممارسات أبو سفيان المنحرفة عن مبادئ الإسلام السامية قد ظهرت بعد العهد النبوي الشريف، بدءً من موقفه المحرض لبني هاشم من جهة والمساوم للحزب القرشي من جهة أخرى، (الكوراني، 1426ه) مرورا بتصرفاته الاستغلالية الباحثة عن فرص تخدم منافعه الشخصية خلال عهدي ابي بكرٍ وعمر بن الخطاب، (عمامو، 1996) الى ان كشف للعلن وبشكل صريح عن حقيقة زيف ادعاءه الايمان بوحدانية الله (تبارك وتعالى) حينما دخل على مجلس ابن عمه عثمان بن عفان لبارك له ولبني امية عامة فرحة تتويج عثمان برئاسة حكومة الدولة الإسلامية بعد موت ابن الخطاب، فقال مقولته الشهيرة بين الحاضرين: (... تلقفوها تلقف الكرة، فما هناك جنة ولا نار...). (الطبري، 1998؛ ابن عبد البر النميري، 2002)

اهداف اقتصادية:

قرر ابو سفيان اتخاذ مسار اخر اثار سخط وانتقاد رجالات قريش وبعض اهل بيته، وهو ليس بجديد على ابي سفيان اتخاذ هكذا قرارات لا تنسجم مع التوجهات القرشية وتحديداً في مثل هذه الظروف، فقد فاجئهم سابقاً بعدم الاشتراك معهم في احداث غزوة بدر الكبرى عام (2هـ)، (ابن سعد، 1983) اذ قرر الانحراف بخط سير القافلة التجارية القرشية بعيداً عن منطقة الخطر والاقتتال المتمثلة بآبار بدر، فلم يعر اهتماماً لطلبهم بالانضمام الى عسكر مشركين قريش، مفضلاً عن ذلك المحافظة على اموال وبضائع القافلة دون الالتفات الى ما ستؤول اليها نتائج المواجهة الحربية مع المسلمين. (المقريزي، ١٤٢٠ ه)

لقد رأى ابو سفيان من عين الصواب في اجتنابه الاشتراك المباشر في غزوة بدر الكبرى سنة (2 هـ)، وتركيزه بالانشغال عنها بما هو اهم من المعركة – طبعاً في نظره هو- فسعى بعملية انقاذ مقتنيات القافلة التجارية القرشية والحيلولة دون وقوعها بأيد المسلمين، (الواقدي، 1966 م) وكذلك في يوم الفتح يرى في ملابسات الاحداث التي سبقت غزوة مكة من استعدادات عالية الهمة بين جند الاسلام من حيث العدة والعدد، فضلا انهم كانوا يتحينون الفرصة لاقتلاع جذور الشرك في مكة المكرمة من اساسها، (ابن هشام، 1986) فكيف بهم اليوم وقد اتاحت لهم الظروف الفرصة لتحقيق ما كانوا يبتغون ؟

هذه الاحداث اوجبت على ابي سفيان ان يبصر هذا الامور بعين الصواب واتخاذ قراره الجريء بعدم المقاومة واعلان حالة الاستسلام النهائي بغيت الحفاظ على ثروات سكان مكة المكرمة خوفا من استحواذ المسلمين عليها وفقدانها عند وحدوث الحرب بين الطرفين، (الطبري، 1998) وهو امر مفرغ منه في اعراف الحروب، فالمنهزم في المواجهات الحربية يخسر كل ما لديه للمنتصر عليه وخصوصاً الاموال تأتي في مقدمتها. (العش، 1992)

أهداف سياسية:

ربما كان ابو سفيان يسعى - وبشكل شخصي - من وراء قراره الحصول على بعض المكاسب لدى كبار قيادات المسلمين وفي طليعتهم رسـول الله محمد (صـلى الله عليه واله وسـلم)، من قبيل حصـوله على مكانة مرموقة يحظى بها بين المسـلمين بعد فتح مكة المكرمة سنة (6هـ) وهو زعيم قريش وسيدها، على اعتبار انه اعلن استسلامه للمسلمين لم يقاوم او يشجع على المواجهة ، بل اخذ يطالب من أبناء بطون قريش في مكة ألقاء السـلاح والدخول في حضـيرة دولة الإسـلام ، (دكسـن، 1973) ولعل أبو سـفيان اعتقد متوهما انه اصـاب بعض مبتغاه من قرار الاسـتسـلام حينما وقف مفتخرا لسماع قول رسـول الله محمد (صـلى الله عليه واله وسلم) قائلا: (...ومَن دخل دار ابي سفيان فهو امن...)، (ابن هشـام، 1986، صـفحة ج4،ص167) وبذلك جُعلت دار أبو سفيان دار امان حالها حال بيت الله الحرام، يلجئ اليها الخائف من مشركي قريش فيجد فيها الامن والامان، وهذا ليس بالأمر الهين او البسيط اذ كان يمثل راس الشرك والنفاق فيها واشد الناقمين والمحرضين على مواجهة الاسلام وحربه، هذا بحد ذاته فضـيلة عدها ابو سـفيان لنفسـه وهو يمر بمثل هذه الظرف المتشـابكة، قد غنمها لتخفف عنه صـفة طلقاء الفتح. (الكوراني، 1426ه) ومن جانب اخر فقد هونت عليه هذه الفضيلة كثراً من حدة الانتقادات الشديدة التي تلقاها من قبل بعض زعامات قريش المتعصبين وقساوة كلماتهم اللاذعة التي او صلته الى حد الاتهام بالميل الى جهة ابن عمه رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسـلم) (ابن هشـام، 1986) فظلا عن غضـب زوجته هند عليه وصـدها عنه، بل وصـلت بها الحالة الى المجاهرة بتحريض الناقمين عليه من قريش لقتله. (ابن قتيبة، 1990)

وعلى ما يبدو ان مبدا المنفعة الشـخصـية ولغة تبادل المصـالح لدى ابو سـفيان هي مَن كانت تتحكم في توجيه مؤشـر بوصـلة علاقاته ومواقفه بأي اتجاه سيذهب اليه ومع مَن سيقف ويتضـامن، وحقيقة الامر ان ابو سفيان كان بالأساس يعد من كبار تجار زمانه، ويجيد قراءة مشاهد الاوضاع بشكلها الصحيح، فالعملية لدية تحكمها مقايس الربح والخسار تحديداً لا غير، لذا تجد مسار مواقفه غالباً ما تكون ملتزمة وفقا لهذا المبدأ، وخصـوصـاً امام المواقف التاريخية الهامة ذات المنعطفات الاكثر وقعاً ومسـاسـاً بنشاطه التجاري كونه مصدر ثروته التي تضمن علو مكانته واستمرار تسيده وسط زعامات قريش ومستقبل ابناءه السياسي بينهم بعده. (طقوش، 2016)

والجدير بالذكر لم يكن ابو سفيان وحده متفردا به دون غيره من رجالات قريش خصـوصـا بني امية منهم، فالمعرف عن قريش احترافها لمهنة التجارة وسـوق القوافل بين اليمن جنوبا والشـام شـمالا، (الصـلابي، 1995) والنزعة المفرطة نحو حب المال وجمعه تكاد تكون من ابرز سمات الشـخصـية الاموية بالدرجة الاولى وتأتي بعدها بطون قريش تباعاً، (اليعقوبي، 1999) لكن ما يميز ابو سـفيان عن غيره من زعامات مكة الاخرى اصـراره الكبير على فرض زعامته واسـتغلاله للمواقف بطريقة تجعله اكثر حظوة في تحقيق هدفه من غيره ، فهو شيخ بني امية سيد قريش خصوصاً بعد مقتل عتبة بن ربيعة المخزومي (البلاذري، 1996) في غزوة بدر الكبرى عام (2هـ). (يماني، 1432ه)

موقف النبي (صلى الله عليه واله وسلم) من مسعى ابي سفيان:

من غير المنطقي ان نقول ان رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) كان قد غفل عن نوايا ابي سفيان الشيطانية وتحركاته المشبوهة، فالنبي الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) هو اعرف الناس ببني امية وتوجهاتهم، وتحديدا شخصية ابي سفيان وطرق تفكيره الملتوية واهدافه المستقبلية، (دكسن، 1973) فظلا عن ان النبي الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) كان يحظى برعاية السماء، فهو ينظر بعين الله (تبارك وتعالى)، وهذه من المسلمات التي لا تقبل النقاش فيها، كما ان هناك العديد من المواقف التي اظهرت زيف اسلام ابو سفيان ومعدن جوهره في هذا الصدد، على سبيل المثال ما كان من موقفه في عزوة حنين سنة (8هـ) المتزلزل لمَا لقي المسلمون قبيلة هوازن بقوله : (...لا تنتهي والله ، هزيمتكم دون البحر ...)، (المسعودي، مروج الذهب في معادن الجوهر، 1964، صفحة ج3،ص178) لذا تجد الرسول وهو نبي الرحمة (صلى الله عليه واله وسلم) يظاهر بلعن ابي سفيان في هذا الموطن وفي مواطن متعددة أخرى تعبيرا عن عمق الشرك والنفاق المتأصلان في قرارات شخصية ابي سفيان الخبيثة، ومن جملة هذه المواطن نذكر وكما يلي:-

1- كان اولها منذ بدايات الدعوة الإسلامية، حيث كان أبو سفيان يتابع بشكل مكثف نشاط رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) حركة انتقاله بين ابناء القبائل في جزيرة العرب خارج مكة المكرمة، فيقوم أبو سفيان بالتحريض على إيذاء شخصه المبارك عبر اتباع الأساليب القبيحة والغير لائقة من قبيل أفعال التكذيب والتسفيه وفي بعض الأحيان تصل الى

درجة الاعتداء بالضرب والتقريع كما حدث في الطائف عندما جاءهم رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) يدعوهم الى الدخول في الإسلام. (ابن الاثير، 1982)

2- وأيضا لعن رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) أبا سفيان في يوم غزوة بدر الكبرى سنة (2هـ)، فعندما اسرع المسلمون لاعتراض عير قافلة مشركي قريش القادمة من ارض الشام ، أبعدها أبو سفيان بدهائه الواسع عن الوقوع بأيدي المسلمين ، فجعل القافلة تتخذ من لها ساحل البحر طريقا اخرا يُبعدُها عن منطقة الصدام العسكري الواقع لا محال، فبدلا من ان يظفر المسلمون بما كانت تحمله جمال هذه القافلة من بضائع نفيسة ومؤن غذائية متنوعة، علها تخفف عنهم وطأة الظروف القاسية التي يتعرضون لها بعد هجرتهم الى مدينة يثرب بعد ان تركوا أموالهم وممتلكاتهم في مكة عرضة للمصادرة والاستحواذ من قبل مشركي قريش، دخلوا في مواجهة عسكرية خطيرة وغير متكافئة مع مشركي قريش في وقعة بدر الكبرى سنة (2 هـ) كادت تقضي عليهم من الأساس لو لا لطف الله وعنايته لهم. (الطبري، 1998)

3- وفي يوم غزوة أحد سنة (3 هـ) لعنه رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) عشر مرات ثم لعنه مَن كان حاضرا من المسلمين في معركة احد كذلك ، فبعد ان تغيرت موازين المعركة لصالح مشركي قريش، ووقع الانكسار في عسكر المسلمين، فصعد رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وبعض المسلمين ممن بقي ثابتا في الميدان الى اعلى سفح جبل احد كي يحموا شخص النبي المبارك، عندها كان أبو سفيان واقفا في اسفل السفح مستثمرا حالة تقهقر المسلمين وانهيار قواتهم المتراصة، فأخذ يطلق عبارته الوقحة لينال من قداسة الدين الإسلامي والتهكم بالمسلمين من جهة ومن جهة أخرى رافعا صوته تمجيدا بأوثان قريش والاهتهم المتعددة ، تعبيرا عن فرحته بتحقيق النصر في هذه المنازلة العسكرية كي تكون بمثابة التعويض عن هزيمة قريش في عزوة بدر الكبرى سنة (2هـ) فمن جملة ما كان يردد أبو سفيان قوله مفتخرا : (... أعل هبل ثلاث مرات...) . (المسعودي، التنبيه والاشراف، 1979، صفحة ص213)

4- ويوم عزوة الأحزاب سنة (5 هـ) لعنه رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) حيث جاء ابو سفيان بالأحزاب من مشركي قريش وابناء القبائل العربية المتحالف معها وضمها الى المتآمرين معه من قبائل يهود يثرب وغطفان، وارد أبو سفيان بهذا الجمع الكثيف القضاء على نور الهداية في المدينة المنورة، فأحكمت كتائب الأحزاب سيطرتها على مداخل المدينة وضربت حصارا شديدا على دولة الإسلام الفتية ، فضاقت الأرض بما رحبت على المسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا وبلغت القلوب الحناجر، وظن البعض منهم قد اوشكت نهايتهم انهم هالكون لا محال . (ابن قتيبة، 1990)

5- وفي يوم الحديبية سنة (6هـ) يوم جاء مشركي قريش وفي طليعتهم رأس الشرك والنفاق أبو سفيان، فصدوا رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) عن تحقيق امنيته في حج بيت الله الحرام ، بعد ان اخذ المسلمون ما يلزم من التحضيرات للقيام بهذه الفريضة العبادي، عندها لعن رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) زعامات قريش وكان أبو سفيان في اولهم، قائلا: (... ملعونون كلهم ، وليس فيهم مَن يؤمن). (الاميني، 2000، صفحة ص167)

6- ويوم الجمل الأحمر لعن رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) الراكب والقائد والسائق، وهم : أبو سفيان وولديه معاوية ويزيد، حيث ورد عن النبي الاكرم انه: جاء أبا سفيان راكب جمل أحمر وابنه معاوية يقوده وابنه الاخر يزيد يسوقه . (الهيثمي، 1414ه)

7- وفي يوم العقبة وقف نفر من أبناء الخزرج ليعلنوا بيعتهم لرسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) في العقبة، فأتى أبا سفيان مع زبانيته من مشركي قريش وكان عددهم اثنى عشر رجلا، فقاموا بتنفيذ محاولة اغتيال فاشلة لشخص النبي الاكرم، عبر استنفارهم لناقته. (اسحاق، 1398ه)

لكن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) يعمل وفق النهج القرآني الداعي لكسب المؤلفة قلوبهم وكما جاء في الآية المباركة : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ...) وكان سيد قريش وشيخ بني امية ابو سفيان في طليعة هذه الزمرة حديثة العهد بالإسلام ، حيث كان رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) يحرص على اتباع معاملة خاصة مع فئة المؤلفة قلوبهم لخطر هذه الشريحة على سلامة امن المسلمين واستقرار أوضاعهم، وبطبعة الحال كان أبو سفيان من ضمنهم ان لم يكن اكثرها خطرا على الإسلام، فهو من كبار الشخصيات المؤثرة على سير الاحداث في جزيرة العرب ، فضلا عن امتلاكه مؤهلات الشخصية المتقلبة ذات الطموح الغير محدود والتي تتيح له إمكانيات كبيرة على صعيد خلق الازمات واستثمرها خدمتا لمصالحه الشخصية، وقدرات أبو سفيان لا يمكن التغافل عنها فقد تثير البلابل في وقت اخذت حالة دولة الاسلام بالانتعاش فيه بعد فتح مكة وتزايد سرعة انتشاره بين افراد قبائل جزيرة العرب الاخذة بالقدوم على مدينة رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) لتعلن عن اعتناقها الإسلام. (فلهاوزن، 1968)

فأخذ شيخ بني امية أبو سفيان يشد الخطى ويجد في السعي الحثيث في سبيل تحقق بعض المكاسب لمصلحته الشخصية وبنيه اولا واخيراً، مستغلا في ذلك الحالة الجديدة المتمثلة بمرحلة التغير الواسع الذي طرئ على الاوضاع العامة في جزيرة العرب بُعيد فتح مكة المكرمة عام (8هـ) (المسعودي، مروج الذهب في معادن الجوهر، 1964)

وظهور عملية التسارع والانتعاش التي شهدتها حركة التبليغ الاسلامي وانتشاره بين افرار القبائل القاطنة في وسط واطراف جزيرة العرب خصوصا الأجزاء الشمالية منها المحاذية لتخوم الشام ، حيث كانت هذه المناطق الشمالية نصب اعين بني امية وخصوصا أبو سفيان منذ البدايات الاولى لدخولهم في معترك المنافسة وفق اصول المتغيرات الجديدة (السيوطي، 1982) ولان بني امية اكثر بطون قريش ارتباطاً بالأراضي الشامية من غيرهم ، واصل هذا التفضيل يعود الى جذور العلاقات التاريخية السابقة التي ربطت بني امية مع سكان هذه المناطق منذ احداث جلي جدهم امية الاكبر عن دياره في مكة المكرمة قاصداً هذه الاجزاء الشمالية. (الحنبلي، 1986)

فبنو امية يتمتعون بدراية واسعة في طبيعة جغرافيا ارض المنطقة ومعرفة كبيرة بممراتها ومسالكها المتنوعة فضلا عن خبرتهم الواسعة بأحوال القبائل الساكنة في هذه الاجزاء الشمالية، حيث ارتبط تجار بنو امية بعلاقات جيدة واواصر قوية بعدد كبير من وجهاء وابناء وشيوخ هذه القبائل العربية، وبطبيعة الحال فأن لهؤلاء الافراد ارتباطات واسعة مع ابناء القبائل العربية القاطنة في الاجزاء التي كانت معظمها واقعة تحت السيطرة المباشرة او الغير مباشرة لقوات الامبراطورية البيزنطية. (ياقوت الحموي، 1959؛ ابن بكار، 1972)

كما ان حاجة قيادات دولة الإسلام الفتية لشخصيات من هذا النوع تستعين بها في انجاح المهام الرئيسية وفي طليعتها بسط نفوذ الدولة وسعيها المتضمن تبليغي الاسلام ونشر مبادئ الشريعة السمحاء بين ابناء هذه القبائل من جهة ومن جهة اخرى ان هذه الخبرة والدراية بطبيعة المناطق الشمالية فضلا عن حجم العلاقات الوشيجة الربطة بين بني امية وابناء هذه القبائل، (ابن عساكر، 1998) شكلت ميزة عززت من سعي بني امية في طلب المناصب (قباني، 1987) لذا فقد وقع اختيار رسول الله محمد (صلى الله عليه واليه وسلم) على بعض رجالاتهم للقيام بهذه المهام.

وفي مقدمتهم شيخ بني امية ابي سفيان الذي اجهد نفسه بالطلب في هذا المضمار فجعله رسول الله محمد(صلى الله عليه واله وسلم) والياً عاماً على جمع اموال الزكاة من ابناء القبائل المسلمة القاطنة في الصحراء من رمع ومروراً بزبيد وانتهاءً الى نجران (الطبري، 1998) وهناك مَن يُزيد في عملية استعمال ابي سفيان وابناءه في تنفيذ بعض المهام الإدارية الهامة في دولة الإسلام الفتية، فيقل: (... إن النبي ولى أبا سفيان صدقات خولان وبجيلة ، واستعمل يزيد بن أبي سفيان على نجران). (البلاذري، 1996، صفحة ج4،ص134)

ولم تتوقف عمليات الاستعانة عند ابي سفيان وابناءه بل شملت العديد من رموز البيت الاموي ، اذ كانت السياسة العامة للدولة الجديدة تهدف إلى استخدام بعض شخصيات بني امية من ذوي القوة والنفوذ الواسع للاستعانة بخبراتهم في تلك المناطق لدعوة ابناء القبائل العربية في شمال الحجاز وجنوب الشام لاعتناق الإسلام والدخول تحت مضلة دولته الجديدة ، فقد عقد رسول الله محمد(صلى الله عليه واله وسلم) لعمرو بن سعيد ابن العاص بن أمية واخوته على تيماء (ياقوت الحموي، 1959) وخيبر (الاصطخري، 1927) وتبوك (ياقوت الحموي، 1959) وفي ذلك تصريح واضح يشير الى نجاح ابو سفيان في عملية تزلفه المريب لكسب بعض المناصب. (قباني، 1987)

النتائج:

بعد الانتهاء من استعراض فقرات هذه البحث يمكن تلخيص اهم النتائج التي تمخضت عنها في النقاط التالية: -

1- الرغبة لدى أبو سفيان في الحصول على زعامة قريش لعلها ترجع جذورها لشخص جده الاسرة الأعلى امية بن عبد شمس ذو النزعة التسلطية منذ أيام هاشم بن عبد مناف (رضوان الله تعالى عليه).
2- ومسالة السيادة في مفهوم أبو سفيان مقترنة بمفهوم الهيمنة الاقتصادية، لان كلاهما يوفر أسباب الديمومة للأخر.
3- وجد أبو سفيان في انتشار مبادئ الدين الإسلامي في مكة المكرمة تهديدا يستهدف منزلته الرفيعة بين رجالات قريش.
4- فنجاح مشروع السماء في انتشار دين التوحيد بين أبناء قبائل جزيرة العرب يعني تقويض مصادر الثروة لدى أبو سفيان وغيره من محتكري النشاطات التجارية القائمة على المتاجرة بالأصنام والاوثان.
5- لذا تجد أبو سفيان هو الأكثر تشددا في محاربة أفكار الدين الجديد، بل كان هو العقل المدبر لكل المؤامرات الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية التي مورست ضد دولة الإسلام الفتية.
6- وبنفس الهمة والسعي الحثيث اتخذ قراره بتغير مواقفه رأسا على عقب بعد انهيار اتفاق الحديبية القائم بين مشركي قريش وقيادات دولة الإسلام في يثرب.

7- فقد نجح أبو سـفيان بأتباع أسـاليب المدارات والمهادنة امام كلمات رسـول الله محمد (صـلى الله عليه والله وسـلم) المتشددة كي يحافظ على مقدار مناسب من المنزلة بين المسلمين في المرحلة التي تلت فتح مكة.
8- لم يعر أبو سـفيان للانتقادات الموجة له من قبل بعض زعامات قريش، فهو كان يخطط الى كسـب رضـا مَن هو بيده مستقبل ذراريه.
9- فأبو سفيان رجل تاجر بالدرجة الأولى ومفاهيمه السياسية تحكمها مبادئ الربح والخسارة لا غير.
10- لقد وضع أبو سفيان اقدام ابناءه في الركاب الذي سيوصلهم في قادم الأيام الى سدة الحكم في دولة الإسلام.

المصادر

- القران الكريم
- ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري. (1927). *المسالك والممالك*. برلين: مطبعة ليدن.
- ابراهيم حسن. (1984). *تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي*. بيروت: دار الجيل.
- ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. (1964). *مروج الذهب في معادن الجوهر* (المجلد 4). القاهرة: مطبعة السعادة.
- ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. (1979). *التنبيه والاشراف* (المجلد 2). بيروت: دار المسيرة.
- ابو العباس احمد بن عبد الله القلقشندي. (1959). *نهاية الارب في معرفة انساب العرب* (المجلد 1). (ابراهيم الابياري، المحرر) القاهرة، مصر: العلمية.
- ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ابن خلكان. (1994). *وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان* (المجلد 2). (احسان عباس، المحرر) بيروت، لبنان: دار الفكر.
- ابو القاسم سليمان بن احمد بن يعقوب الطبراني. (1983). *المعجم الكبير*. الموصل: مكتبة العلوم والحكم.
- ابو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله ابن عساكر. (1998). *تاريخ مدينة دمشق*. بيروت: دار الفكر.

- ابو جعفر محمد بن جرير الطبري. (1998). *تاريخ الامم والملوك* (المجلد 1). (علي مهنا، المحرر) بيروت، لبنان: الاعلمي.
- ابو عمر يوسف بن عبد الله الن عبد البر النميري. (2002). *الاستيعاب في معرفة الاصحاب* (المجلد 1). بيروت: دار الفكر.
- ابو عمرو خليفة بن خياط بن ابي هبيرة العصفري خليفة. (1967). *تاريخ خليفة بن خياط* (المجلد 1). (اكرم ضياء العمري، المحرر) النجف الاشرف، العراق: مطبعة الاداب.
- ابو محمد بن عبد الله بن احمد الازرقي. (1969). *اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار* (المجلد 3). (رشيد الصالح، المحرر) مكة: دار اكتب.
- ابو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة. (1990). *الامامة والسياسة*. قم: منشورات الشريف الرضى.
- ابو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ابن هشام. (1986). *السيرة النبوية* (المجلد 1). (احمد اسحاق، المحرر) بغداد، العراق: دار الفكر.
- ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم. (1962). *جمهرة انساب العرب*. (عبد السلام هارون، المحرر) القاهرة، مصر: دار المعارف.
- ابي الحسن علي بن محمد الجزري ابن الاثير. (1377ه). *اسد الغابة في معرفة الصحابة*. طهران: المكتبة الاسلامية.
- محمد بن اسحاق. (1398ه). *سيرة ابن اسحاق* (المجلد 1). (سهيل زكار، المحرر) بيروت: دار الفكر.
- محمد بن حبان بن احمد ابن حبان. (1393ه). *الثقات* (المجلد 1). الهند: دار المعارف العثمانية.
- محمد بن سعد بن منيع البصري ابن سعد. (1983). *الطبقات الكبرى*. (احسان قدوس، المحرر) بيروت، لبنان: دار الفكر.
- محمد بن عبد الرحمن المباركوري. (1990). *الرحيق المختوم* (المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
- محمد بن عمر الواقدي. (1966 م). *المغازي*. (مارسن جونز، المحرر) لندن: المطبعة العالمية.
- ايو الحسن علي بن ابي بكر الهيثمي. (1414ه). *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*. القاهرة: مكتبة القدسي.
- تقي الدين ابو محمد احمد بن علي المقريزي. (١٤٢٠ ه). *إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع* (المجلد 1). (محمد عبد الحميد النميسي، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.
- جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي. (1982). *الدر المنثور*. بيروت: دار الفكر.
- شمس الدين محمد بن احمد الذهبي. (1999). *تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام* (المجلد 12). القاهرة: دار الكتب.
- شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت الرومي البغدادي ياقوت الحموي. (1959). *معجم البلدان*. بيروت: دار صادر.
- ابي الحسن علي بن محمد الجزري ابن الاثير. (1982). *الكامل في التاريخ*. بيروت: دار صادر.
- احمد بن اسحاق بن جعفر اليعقوبي. (1999). *تاريخ اليعقوبي* (المجلد 1). (خليل المنصور، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العالمية.
- احمد بن يحيى بن جابر البلاذري. (1996). *انساب الاشراف* (المجلد 1). (سهيل زكار، المحرر) بيروت، لبنان: دار الفكر.

- الزبير بن عبد الله بن بكار. (1972). *الاخبار الموفقيات* (المجلد 1). (سامي مكي العاني، المحرر) بغداد، العراق: مطبعة العاني.

المراجع الحديثة:

- احسان صدقي. (1994). *الجذور التاريخية للاسرة الاموية* (المجلد 1). بيروت: دار الكتب.
- جواد علي. (1980). *المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام* (المجلد 1،2،3). بغداد/ بيروت: مكتبة النهضة / دار العلم للملايين.
- حياة عمامو. (1996). *الصراع على السلطة وهاجس الشرعية في الاسلام المبكر* (المجلد 1). بيروت: بيبلون.
- زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن احمد الحنبلي. (1986). *فضائل الشام*. دمشق: دار الفاروق.
- سامي عبد الله احمد الملغوث. (2011). *اطلس الدولة الاموية*. بيروت: دار الفكر.
- عبد الامير دكسن. (1973). *الخلافة الاموية* (المجلد 1). بيروت: دار النهضة العربية.
- عبد الحسين احمد الاميني. (2000). *الغديرفي الكتاب والسنة والادب* (المجلد 1). قم: مركز الغدير.
- عبد العزيز سالم. (1974). *تاريخ الدولة العربية* (المجلد 1). القاهرة: النهضة العربية.
- عبد المنعم ماجد. (1957). *التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الامويين*. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية.
- علي الكوراني. (1426ه). *جواهر التاريخ* (المجلد 1). قم: دار الهدى.
- محمد بيك الخضري. (1976). *محاضرات في تاريخ الدولة الاسلامية* (المجلد 1). بيروت: دار القلم.
- محمد سهيل طقوش. (2016). *تاريخ الدولة الاموية* (المجلد 7). بيروت: دار النفائس.
- محمد عبد الحي شعبان. (1987). *صدر الاسلام والدولة الاموية* (المجلد 2). عمان، الاردن: الاهلية للنشر.
- محمد عبده يماني. (1432ه). *بدر الكبرى، المدينة والغزوة*. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.
- محمد علي الصلابي. (1995). *الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار* (المجلد 1). بيروت: دار المعرفة.
- المصطفى. (1419ه). *ايات الغدير* (المجلد 1). قم: المصطفى للدراسات الاسلامية.
- محمد قباني. (1987). *الدولة الاموية من الميلاد الى السقوط* (المجلد 2). عمان، الاردن: الاهلية للنشر.
- محمود شاكر. (1991). *التاريخ الاسلامي العهد الاموي* (المجلد 6). بيروت: المكتب الاسلامي.
- مروان خليفات. (1998). *قراءة في المسار الاموي* (المجلد 1). بيروت: مركز الغدير.
- يوسف العش. (1992). *الدولة الاموية* (المجلد 1). بيروت: دار الفكر.
- يوليوس فلهاوزن. (1968). *تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية*. القاهرة: لجنة التاليف والترجمة.